ونعود لما بدأنا الحديث عنه فنتساءل : كيف نشأت اللغة العربية المشتركة؟ أمن كل اللهجات العربية أم من لهجة واحدة تحققت لها السيادة على غيرها من اللهجات؟ وإن آان هناك لهجة تغلبت على أخواتها، ليس لدينا معلومات عن طفولة العربية. وحديثنا عنها لا يتجاوز العصر الجاهلي الذي يؤرخ له ينحو مائة وخمسين عاما قبل ظهور الإسلام. اختلفت آراء علماء العربية في نظرتهم إلي العربية المشتركة ولهجاتها قدامى ومحدثين: فقد ذهب القدامى إلى أن العربية المشتركة هي لغة قريش ذلك أن قريشا في نظرهم أفصح العرب وأصفاهم لغة، لأنهم كانوا يسكنون جوار البيت العتيق فمنحهم هذا الجوار سلطة روحية وأدبية، وكانت الوفود تأتيهم من مختلف القبائل العربية فيختارون من ألسنتها ما وافق طباعهم، وما أحسوا أنه صورة راقية من صور الفصحى، ويجتنبون الظواهر المسفّة في هذه اللهجات فجاءت لغتهم خالصة من الأوشاب اللهجية، يقول أبو الحسين أحمد بن فارس)ت941:م (: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلك أن ا ـ جل ثناؤه ـ اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى عليه وسلم، فجعل قريشا قد حرمه وجيران بيته الحرام وولاته وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى آلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ونقل السيوطي)ت911:م(عن أبي نصر الفارابي قوله :)كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس. (آما نقل عن الفراء)ت822:م(قوله في هذا الشأن: "كانت العرب تحضر الموسم في آل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ. تلك جملة من أقوال القدماء تجمع على فصاحة قريش وعلو المنزلة التي رفعت إليها لهجتهم بفضل ما تجمع لديها من رقة اللسان وبعد عن الألفاظ الموحشة وبفضل ما اختارته من لهجات القبائل. أما تأثر لهجة قريش بغيرها من لهجات القبائل نتيجة هذا الاتصال المستمر فأمر مسلم به في الدراسات اللغوية الحديثة حيث إن احتكاك اللهجات بعضها ببعض يقرب الشقة فيما بينها ويذيب الفوارق اللهجية، ويؤدي في النهاية إلى أن تتغلب إحدى هذه اللهجات على شقيقاتها متى أتيحت لها الظروف، آما يؤدي إلى أن تترك هذه اللهجات بصماتها في اللهجة الغالبة، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نوافق القدماء على اندفاعهم في آلمتهم بأن لهجة قريش أفصح اللهجات العربية إذ أن المفاضلة بين اللهجات لا تتفق مع وجهة النظر اللغوية الحديثة. هذا وقد تبع فريق من المحدثين علماء العربية القدامى في نهجهم فوضع لهجة قريش في المنزلة العالية، وجعل لها السيادة علي غيرها من اللهجات العربية بفضل ما أتيح لأهلها من ثقافة وجاه وسلطان، وما انتقل إليها من عناصر لغوية زادتها ثراء. فهي عندهم اللغة الفصحى التي نظم بها الشعر وألقيت الخطب في المحافل والمحتمعات، وهي عندهم لغة القرآن والحديث والآثار الدينية والأدبية والعلمية. وممن سار في هذا الاتجاه الدآتور علي عبد الواحد وافي إذ يقول في معرض آلامه عن تغلب لهجة قريش في اتصالها مع اللهجات العربية: هذا إلى أن لهجة قريش آانت أوسع اللهجات العربية ثروة وأغزرها مادة وأرقها أسلوبا، وأدناها إلى الكمال وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول وقد تم لها ذلك بفضل ما أتيح لأهلها من وسائل الثقافة والنهوض، وما أتيح لها من فرص آثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر زادتها ثروة وسدّت ما آان يعوزها في بعض مناحي التعبير. إلى أن يقول: "وهذا هو ما حدث للغة قريش فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب، فبها آان ينظم الشعر وتلقى الخطب، المناقشة في النوادي والمؤتمرات في مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلهم وقد تم لها ذلك قبل بعثة الرسول صلى ا عليه وسلم بزمن غير قصير. ويسلك الدآتور حسن عون طريقا مماثلا فيقول: "ومنذ نهضت قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها تسود اللهجات الأخرى وتتغلب عليها . وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية، وهى أيضا لغةالقرآن والحديث والأدب العربي" ونحن لا نستطيع أن نرآن إلى مثل هذه الأقوال التي تجعل لهجة قريش وحدها لغة القرآن والحديث والآداب فقد سبق أن ألمحنا قبل سطور في حديثنا عن نشأة اللغات المشترآة بأن هذه اللغات وإن قامت في بدء نشأتها على أساس لهجة سادت غيرها لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية، إلا أنها تصبح مع الزمن ولا تعود تذآرنا عند سماعها وينسى الناس جذورها الأولى، الجماعات اللغوية الأخرى تأخذ العناصر المشترآة التي تدخل في تكوينها في الازدياد، وآلما ازدادت انتشارا آثرت الصفات التي تستعيرها من صور اللهجات المحلية. وهكذا فإن اللغة العربية المشتركة وإن قامت في بداية نشأتها على أساس لهجة قريش إلا أنها أخذت على مر السنين خصائص لغوية من قبائل عربية مختلفة نتيجة اتصال قريش بهذه القبائل في مناسبات عديدة، فلم تعد اللغة المشتركة لهجة قريش

Summarized by © lakhasly.com

وحدها بل هى مزيج منسجم من اللهجات العربية، ولنضرب في هذا المقام مثلا توضيحيا فنقول: من الحقائق المعروفة في دراسة اللهجات العربية القديمة أن ظاهرة النبر- أي تحقيق الهمز- من الخصائص البدوية التي اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة وشرقيها)تميم وما جاورها(وأن عدم النبر أي تسهيل الهمز أو تخفيفه- صفة حضرية امتازت بها لهجة القبائل في شمال الجزيرة وغربيها) قريش وما جاورها من القبائل الحجازية. وقد أآد ذلك ابن اهل الحجاز وهذيل، منظور في الرواية التي اوردها فقال واهل مكة والمدينة لا ينبرون وقف علينا عيسى بن عمر فقال: ما أخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر، " " يفهم من العبارة السابقة أن لهجة تميم تحقيق الهمز ولهجة قريش تسهيلها، وقد أخذت العربية المشترآة تحقيق الهمز من تميم، وأصبح الخاصة من العرب مهما اختلفت قبائلهم يلتزمون تحقيق الهمز في الأسلوب الجدي من القول من شعر أو خطابة أو نثر حتى القبائل الحجازية، فهي وإن آانت في لهجات الخطاب تسهل الهمز إلا أنها التزمت تحقيقه في الأساليب الأدبية، وهذا هو ما أشارت إليه الرواية وقولها:)واهل الحجاز إذا اضطروا نبروا. " وخلاصة ما تقدم أن الذين ذهبوا من المحدثين إلى أن لهجة قريش هي اللغة العربية المشاركة قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه، فقد اتضح أن هذه اللغة ليست لهجة قريش ووحدها، ومن أدلة ذلك وجود الهمز في الفصحى وقريش لا تهمز. وبناء عليه فإننا نعتقد أن الفريق الآخر من المحدثين آآثر توفيقا وأقرب إلى فقد ذهب هؤلاء إلى أن العربية المشترآة مزيج من اللغوية، وجهة النظر اللهجات العربية. وهى وإن قامت في مرحلة تكوينها على أساس لهجة قريش إلا أنها استمدت كثيرا من خصائصها من اللهجات العربية المختلفة، واستمرت على هذا الوجه تنمو وتزودها إلى أن تكون اطارها العام وأصبح لها كيان مستقل يعيش إلى جانب اللهجات المختلفة، ويصطنع في المجال الجدي، بينما نصطنع اللهجات في شؤون الحياة العامة. وممن اتجه هذا الاتجاه الدكتور ابراهيم أنيس الذي تناول في حديثه نشأة اللغة العربية المشتركة في مكة عندما هيئت لها الظروف والأسباب حيث يقول: "فكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست في آثير من صفاتها على لهجة مكة. ولكنها استمدت أيضا الكثير من صفات اللهجات التي آانت تفد إليها، ثم نمت هذه اللغة مع الزمن وتبلورت مسائلها وأصبح لها آيان مستقل عن آل اللهجات ثم انتشرت مع القبائل والوفود حتى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة، وأصبحت اللغة التي ينظم بها الشعراء ويخطب بها الخطباء والتي تصطنع في كل مجال جدي من مجالات القول، " وعلى هذا الأساس فاللغة المشترك عنده مزيج منسجم من القواعد والأصول أخذت مع الزمن هذا الشكل العام، فلا تدّعيها لنفسها قبيلة من القبائل ولا يقتصر شأنها على بيئة بعينها من بيئات العرب القدماء. وقد تم تكوينها قبل الإسلام وأصبحت لغة العرب جميعا وأنزل القران الكريم بها ليفهمه جميع الناس في شتى القبائل العربية فلا يمثل القرآن لغة قريش وحدها آما يتردد أحيانا في بعض الكتب والروايات وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعا لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة. ويستقرىء الدكتورر داود عبده نصوص العربية الفصحى فيلاحظ عدم اطراد قواعدها في بعض الأحيان، ويسوق الأمثلة على ذلك، ويتخذ منها دليلا على أن الفصحى ليست إلا مزيجا من لهجات متعددة فلو كانت لهجة واحدة آما ذهب بعض العلماء لجاءت قواعدها مطردة يقول الدكتور عبده : "إن استقراء النصوص في الفصحى يشير إلي وجود مثل هذه القواعد المتناقضة وآثير غيرها، مما لا يدع مجالا للشك في أن العربية الفصحى ليست لهجة واحدة بل مزيجا من اللهجات. ويتخذ االدكتور عبده الراجحي موقفا يتفق في بعض جوانبه مع ما تقدم ويختلف عنه في جوانب أخرى. فهو حين يستعرض أقوال القدماء يلاحظ أنهم يجعلون لهجة قريش وحدها هي اللغة العربية االمشتركة، وعندما يبحث عن أسباب هذا الحكم، يجد أنها نابعة من تمجيدهم للهجة قريش التي اكتسبت ذلك لكون النبي صلي ا؟ عليه وسلم قرشيا، ثم ينتقل لمناقشة آراء المحدثين فيرى أنهم ساروا في الطريق ذاتها التي سلكها القدماء ويستشهد بأقوال كثير منهم فيلاحظ أنها ترديد لأقوال القدماء ولا تستند إلي دليل لغوي. ويخلص الدآتور الراجحي بعد ذلك إلى تقديم رأيه الذي يعتقد فيه أن اللغة العربية المشترآة مزيج من اللهجات العربية، وفي ذلك يتفق مع بعض المحدثين آما قدمنا قبل سطور، لكنه يختلف عنهم عندما يذهب إلى أن هذه اللغة المشتركة لا تنتسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنتسب إلى العرب جميعا، ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها، وهذهالنصوص آما يفهم ليست قرشية أو تميمية ومع وجود هذه اللغة المشتركة بل هى من قبائل مختلفة أو هذلية فقط، احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها اللهجية، ومع دخول بعض هذه الخصائص إلى اللغة الفصحى نقول: إن خصائص لهجة قريش ليست هى الغالبة على غيرها. وبعد: فمن خلال هذا التجوال في مواقف علماء العربية قديما وحديثا يتضح تباين وجهات نظرهم في تكوين اللغة العربية المشتركة. والرأي الذي يطمئن إليه القلب هو أن اللغة المشترآة مزيج من اللهجات العربية لكننا لا نستطيع الإقرار بأن لهجة قريش هي الغالبة في هذا المزيج فحتى لو سلمنا بأن العربية المشتركة قامت على أساس من لهجة قريش بعد امتزاجها بعناصر من اللهجات الأخرى فإنه لم يغب عن بالنا بأن هذا المزيج بعد تكونه لا ينتسب إلى بيئة لغوية معينة.

Summarized by © lakhasly.com

على مر الأيام، وهذا لا يساعد على غلبة لهجة قريش. إن الحكم الذي ينص على أن لهجة قريش هي الغالبة في هذاالمزيج حكم ترجيحي يعتمد على أقوال الرواة، ولا يستند إلى دليل علمي، ذلك أنه لم تتوفر لدينا نصوص لغوية من لهجة قريش، أو من غيرها من اللهجات العربية قبل تكوين العربية المشترآة، آي نستطيع من خلالها، أن نتبين القدر الذي ساهمت فيه آل لهجة من هذه اللهجات في اللغة العربية المشترآة، وطالما أن الأمر على هذا الوجه فإن القول بغلبة لهجة قريش يبقى ضربا من الحدس والتخمين. أما القول بأن العربية الفصحى مزيج من اللهجات فأمر تشهد به النصوص اللغوية، وهذا هو الجانب الأهم في هذه القضية لأنه جانب حي وعملي، وسوف يتضح من خلال دراستنا لبناء الجملة العربية في السطور التالية. الصفات اللهجية في بناء الجملة في العربية الفصحى : وتتأخر بتأخره، وآل لغة في هذا العالم تتغير بلا انقطاع، وتتطور على الدوام. وعلى مختلف المستويات. ففي كل زمن تظهر مفردات وتراكيب جديدة، وتختفي أوتهمل مفردات وتراكيب أخرى. ويتم ذلك دون قصد من أصحاب اللغة، بل دون شهورهم. وتتطور اللغة لأجل أن تصبح قادرة على تلبية حاجات المجتمع، واستيعاب جوانب الحياة المختلفة، فإذا تغيرت طبيعة الحياة لدى الأفراد، نتيجة تغير في القيم أو الحضارة أو المعتقدات، فإن ذلك يستلزم أن تتولد ظواهر لغوية جديدة، وتتغير نظم سابقة، مظاهر التطور تحدث في اللغة استجابة لحركة الحياة، وعليه فلا يعقل أن تبقى لغة على حالة من الثبات والجمود عبر العصور والأزمان. وتستطيع النظرة التاريخية على هذا الأساس تجلية ملامح آثيرة من الظواهر اللغوية، عندما نلاحظ في اللغة أحيانا صورتين أو اكثر لظاهرة تمثل إحداها فترة تاريخية أقدم من الصور الأخرى. واتصال اللغة بلهجاتها أو بغيرها من اللغات ينجم عنه عملية تأثير وتأثر تؤدي في الغالب إلى انتقال كثير من الصفات إلى تلك اللغة، ويكون ذلك رافد آخر من روافد التطور في اللغة، وتصبح الدراسات اللغوية المقارنة في هذه الحالة ضرورية لأنها تساعد في تفسير تلك الظواهر اللغوية. واللغة العربية ليست بدعا بين اللغات، بل هي لغة يجري عليها ما يجري على اللغات الأخرى من قوانين التغيير، وكل مرحلة من مراحلها تمثل حلقة في سلسلة حلقات طويلة من التطور. فلا يجوز- والحالة هذه- دراسة مراحلة بمنأى عن غيرها من المراحل، أو بمعزل عن الدراسات المقارنة. ومن المعروف أن اللغة العربية الفصحى قد اتصلت باللهجات القديمة وتفاعلت معها واستوعبت الكثير من صفاتها حتى أصبحت مزيجا من الخصائص اللهجية، وقد ساعد ذلك على ثرائها في مختلف المستويات اللغوية، سواء في ذلك المستوى الدلالي أو النحوي. ويهمنا في هذه الدراسة ما يتصل بالجملة العربية حيث وجد لبنائها في بعض الحالات اكثر من صورة. وقد تعايشت هذه الصور المتعددة في سلام ووئام، إلى أن جاء عصر تدوين اللغة وأخذ علماء اللغة يضعون قواعدهم ويحاولون فرضها، فإذا وجدوا مثلا مخالفا أخضعوه لتأويلاتهم النحوية، وإلا حكموا عليه بالشذوذ غير آبهين بما يمكن أن يحدث من تطور لبناء الجملة في تلك الفترة الزمنية الطويلة التي أطلقوا عليها عصور الاحتجاج والتي امتدت قرونا عديدة. ولا شك أن التعرف على هذه الصفات اللهجية في بناء الفصحى والاستفادة من النظرة التاريخية المقارنة في دراستها يساعد على فهم بناء الجملة بشكل أفضل بعيدا عن التعليل والتأويل. ولنضرب لذلك المثل التوضيحي التالي: من المعلوم أن للجملة الفعلية البسيطة المكونة من فعل وفاعل صورتين: الأولي: يكون الفعل فيها خاليا من علامتي التثنية والجمع فيقال حضر الطالبان، حضر الطلاب، النحاة وهي الأوسع انتشارا بين العرب. الثانية: يتطابق الفعل فيها مع الفاعل، حضرا الطالبان، الطلاب، حضرن الطالبات. وقد اشتهرت هذه الصورة الثانية في آتب النحو بلغة)أآلوني البراغيث(ونسبت إلى لهجات متعددة منها: لهجة بلحارث وطي وأزد شنوءة. وجد النحاة أن الصورة الأولى تنسجم مع قواعدهم، لكنهم عندما نظروا في ولكنهم فحاولوا إخضاعها لمنطقهم، الصورة الثانية رأوا أنها لا تتفق معها، اختلفوا في تأويلاتهم وتعليلاتهم حيث ذهب فريق منهم إلى أن ألف الاثنين فيقرب على أنه بدل أو مبتدأ مؤخر. وذهب فريق آخر إلى أنها حروف أو علامات للتثنية والجمع وفي هذه الحالة يكون الاسم الظاهر هو الفاعل. وعندما نظر هذا الفريق في قوله تعالي:﴿ثم عموا وصموا آثير منهم ﴾)سورة المائدة، الآية:. 71 أجازوا تنازع العاملين)عموا وصموا(في الاسم الظاهر)آثير(، وجعل الواو مع أن وتقدير ضمير مستتر في الفعل المهمل في الفعلين علامة للجمع، الضمير موجود وهو واو الجماعة إلا أنهم اعتبروه علامة للجمع(وعدوا ذلك من غرائب العربية. إلى هذا الحد وصل بهم التعليل والتأويل واحترام القواعد، مع أن الأمر أبسط مما ذهبوا إليه. فالنظرة التاريخية المقارنة توضح أن لغة)اكلوني البراغيث(تمثل الصورة الأقدم في العربية حيث إن الأصل في اللغات السامية تحقيق المطابقة بين الفعل والفاعل، ثم تطور هذا الأصل فتكونت الصورة الأولى التي يكون فيها الفعل مفردا مع الفاعل في آل الأحوال وانتشرت هذه الصورة الأولى التي يكون فيها الفعل مفردا مع الفاعل في آل الأحوال بين غالبية العرب. على أن صورة الأصل لم تمت، وبقيت تستعمل في بيئة أو بيئات محافظة منعزلة، وعندما خرج الرواة واللغويون لجمع اللغة في مرحلة تدوينها، رووا وعند ما وجهوا ووضع النحاة قواعدهم على الأعم الأغلب الصورتين،

Summarized by © lakhasly.com

بالصورة الثانية حاولوا إخضاعها لمنطقهم. فجنحوا إلى التعليل والتأويل على الوجه المتقدم، متناسين نواميس التطور التي تجري على بناء الجملة العربية)وعلى غيرها من الظواهر اللغوية بالطبع (استجابة لنزعة معيارية، مع أن مهمة اللغوي تفسير الظواهر اللغوية لا تعليلها، وبذلك يمكن النظر إلى الصورتين على أنهما تمثلان طورين من أطوار اللغة: طورا سابقا وطورا لاحقا أو طورا قديما وطورا جديدا، ولعل الأخذ بالصور الجديدة يساعد على تخليص قواعد النحو من هذا التشعب الذي يثقلها، ومن آثير من صور التقدير وذيول الخلاف وتعدد الوجوه والأقوال، ويستأنس بالعلاقة بين آل صورة وتاليتها في رسم اتجاهات التطور النحوي. ومهما يكن من أمر فإن جهود النحويين العاملة على طرد القاعدة وميلهم إلى التقنين والتنظيم أدت بهم إلى طمس هذه الصفات اللهجية وعدم الإشارة إليها إلا في النادر من الأحيان. وقد أثر هذا المنهج على نظرتهم إلى اللهجات فلم ولم يرووا إلا النزر ولم يتوفروا على دراستها، يمنحوها الاهتمام الكافي، ومما يزيد الأمر مشقة أن هذه الإشارات اللهجية المروية كانت في غالبيتها تتصل بالدراسات الصوتية والدلالية وأن القليل منها يتصل بالجملة، ذلك لأن بناء الجملة أقل الظواهر اللغوية تطورا من وجهة النظر اللغوية الحديثة. ففي الختام نقول: يعرض البحث نظرة علماء العربية إلى اللهجات : فقد أدرك المحدثون أهمية اللهجات في فهم طبيعة الفصحى، فأقبلوا على دراستها، وألفوا الكتب فيها، وساهمت الجامعات والمجامع اللغوية في أنحاء العالم العربي في هذا الشأن انطلاقا من اعتقادهم بأن التعرف على الخصائص المشتركة للهجات يساعد على تقريب المسافة فيما بينها، ويؤدي إلى تعميق التفاهم بين أبناء الأمة العربية، وتناول علماء العربية القدامى اللهجات في دراستهم اللغوية،

Summarized by © lakhasly.com